



انصياع نظام الأسد للاتفاق الأميركي الروسي حول تسليم أسلحته الكيميائية للأمم المتحدة، يكون الشق الأمني من سياسات إسرائيل السورية قد نجح في نزع قوة "نظام الممانعة" المزعوم الافتراضية، وانتقل إلى الصراع على مستقبل سورية السياسي، بالدرجة الأولى مع إيران ومرتزقتها الذين يحتلون أجزاء كبيرة منها، ويريدون تحويلها إلى ساحة مواجهة تشكل مع جنوب لبنان جبهة واحدة ضد إسرائيل التي احتلت الجولان السوري عام 1967، وضمه برلمانها إليها رسمياً عام 1981، بسبب مكانته الاستراتيجية الخاصة التي تمكّنها من تعزيز قدرتها على ردع أي تحد يكون مصدره المشرق العربي وجواره. يقول الإسرائيليون إنهم لن يقبلوا وجود إيران العسكري في المناطق المجاورة للجولان، وإن انتشار جيش ملالي طهران ومرتزقته في الجولان سيقضي تماماً على تعايش نظام الأسد بسلام معها منذ حرب 1973، القائم على قبوله نتائج هزيمة حزيران، وتحاشيه أي صدام عسكري معها، خوفاً على نظامه. رضي الأسد بهيمنة إسرائيل على سورية أمراً واقعاً، ومارس دوره الداخلي والعربي تحت رعايتها، المباشرة في لبنان وفلسطين وغير المباشرة في سورية والبلدان العربية الأخرى، على الرغم من طوفان الكلام الثورجي اليومي عن تحرير الجولان وفلسطين. ومع أن الأسد الأب وابنه استقويا بإيران، إلا أنهما حرصاً دوماً على إبعاد سورية عن ما تريده طهران، تحويله إلى قاعدة متقدمة لصراع ضد تل أبيب، تعود مفانمه العربية والإسلامية الاستراتيجية وغير المحدودة على ملاليها، بهيمنة مضمونة على مناطق واسعة من الوطن العربي، من دون توريطهم في حرب لا قبل لهم بها، يعلمون أن طرفيها الآخر لن يقتصر على الإسرائيليين، الذين لن يقبلوا وجوداً عسكرياً إيرانياً في الجولان، بعد أن تم تدجين حزب الله في جنوب لبنان، وأدخله الرعد الإسرائيلي إلى حقبة كلامولوجية، تشبه الزمن الجولياني الذي لا يفعل شيئاً لتحريره غير إطلاق حملات رغاء كلامي عن تحريره، من دون أن يفعل شيئاً لاستعادته إلى وطنه.

لا شك في أن إيران فهمت معنى غارات إسرائيل على جنرالاتها في الأرض السورية، خصوصا منها المحاذية للجولان، ولا شك في أن إسرائيل تشجعت بعدم رد الملاي علىها، وكتفت غاراتها على سلاح حزب الله، في كل مكان من سوريا، تطبيقا لنهج في الردع الاستباقي القابل للتصعيد بلا حدود، وموضوعه هل تبقى هيمنة إسرائيل أم تزول أمام هيمنة إيران التي يريد الملاي تحويلها إلى سيطرة على سوريا لا منافس لها. هذه هي الرسالة الأولى التي لا بد أن تكون قد وصلت.

أما الرسالة الثانية، فهي تتعلق بخيارات العمل الإسرائيلي ومكانته في سوريا، وهي موجهة إلى موسكو، الراغبة في تقليل حضور (ونفوذ) إيران ومرتزقتها في سوريا، لكنها لن تتمكن من فعل شيء جدي ضدها، خشية أن تختلف مع واشنطن حول المسألة السورية، وتكون بحاجة إلى عسكر إيران في صراع محتمل مع عسكر البيت الأبيض. في هذه اللحظة الحساسة جدا، تقدم إسرائيل إلى واجهة المسرح، لتخبر الروس باستعدادها لزيادة حصتها من النفوذ والدور في سوريا، ودعمهم في مسائل تتصل بعلاقتهم مع واشنطن، مقابل تقليل حضور إيران ونفوذها في سوريا، والتعامل معها باعتبارها جهة يبندها الطرفان، تنافس موسكو على سوريا، وتحطط لإقامة جبهة عسكرية في الجولان، إن أبقيت قواتها في سوريا، فوتت على الروس فرص تمويعهم فيها وانتشارهم في جوارها. هذا العرض الإسرائيلي بواسطة القوة المفرطة يتضمن أيضا ضدها شقا أميركيا يقول: تخضع علاقات التعاون بيننا وبين موسكو لظرفية الأحداث وتقلباتها، وللوقوف المصالح أو تضاربها. ومع أننا نريد دورا روسيا في إخراج إيران من سوريا، فإننا لن نحجم عن انتهاج سياسات مستقلة عن الروس، وقد لا تتعجبهم. لذلك، أبلغنا الكرملين رفضنا الالتزام بغير ما تملية علينا مصالحنا، وأفهمناهم، وإن بطريقة غير مباشرة، أننا لا نخشى صواريختهم، عندما هددنا الأسد بدمير قواعده الصاروخية، فلا يعتقدن أحد من الآن فصاعدا أن إسرائيل تقبل أن تتقيد بما تتوهم موسكو أنها ترسمه لها من هوامش، يمنع عليها التحرك خارجها. هذا ليس صحيحا، فإسرائيل تلتزم بالتعاون إن خدمها، وترفضه إن قيد حركتها وتضارب مع مصالحها. ومثلاً تعتبر سوريا ساحة صراع روسي/ إيراني مضمون، فإنها أيضا ساحة صراع إسرائيلي/ روسي، أعلن عن نفسه خيرا بصور شتى، عبر التصريحات والغارات الجوية المفعمه بالتحدي.

هناك، أخيراً رسالة ثالثة موجهة إلى أميركا، تقول إسرائيل فيها: أنتم ترابطون اليوم في الشمال السوري بقوة عسكرية كبيرة، تتكامل مع قواتكم التي ترابط شمال العراق، وتشكل معها قوة أكبر من تجمع الروس العسكري في سوريا. تود غاراتنا لفت أنظاركم إلى أن موقعنا في جنوب سوريا، المطل على الأردن وشبة الجزيرة العربية ومصر وشرق المتوسط، يجب أن يؤخذ في حساباتكم الكبيرة، إذا أردتم الانخراط في لعب دور جدي ضد الكرملين وملاي طهران. اعلموا أن إسرائيل جاهزة، ولا تتسبوا أن لديها جيشا بريا هو الأقوى والأكثر عدديا في المنطقة، وأنها ترى في التنسيق الاستراتيجي معكم بوابة يمكن أن تلجم عبرها، أخيرا، إلى العالم العربي، وتغدو إحدى القوى المقررة لراهنها ومستقبله، بفضل دورها المساند لكم ضد طهران، فاقدموها ولا تحجموا، وبادروا ولا تترددوا.

بالغارات الأخيرة، دخلت إسرائيل على خط صراع يتسع بدل أن يتراجع، ويتحول إلى صراع بين الجبارين، يرجح أن تخوضه قواهما المباشرة التي تحتسب إسرائيل نفسها على إداهما: أميركا.

المصادر: